37 الشخصانية الإسلامية

محمد عزيز الحبابي
- مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعارف، (بدون تأريخ، إلا أن رقم الإيداع يشير إلى عام 1983)، [152 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة الفرنسية (ثم ترجم منها إلى العربية).
- مجال البحث (الكتاب): الشخصية الإسلامية (يستعمل أهل المغرب العربي مصطلح الشخصانية).

❑ ❑ ❑

يُمكن أن يصنّف الكتاب في مجال علم النفس أو مجال الفلسفة أو الإجتماع وحتى في مجال الشريعة، مما يدل على موسوعية المؤلف في هذا المجال، فقد تناول موضوع (الشخصية) عامة (والشخصية الإسلامية) على وجه الخصوص تناولاً متعدد النظرات والمنظورات.

يتألف الكتاب من ثلاثة أقسام: معطيات أولية، ومعطيات نشوئية، تحفظات وتساؤلات عن التعالي ووضع المرأة والرق والذمة في الإسلام. ثم يحاول الباحث في القسم الثالث أن يجيب عن تساؤل: أين نحن اليوم؟ ليستعرض الإجابة في ثلاثة فصول: المنزلة بين المنازل، المسيرة الروحية ومشكل الشر، ونافذة على المستقبل.

* يستهل الباحث كتابه بمفهوم (الشخصانية) ليبدأ باستعراضه من مفهومه عند العرب في الجاهلية كشعور بالذات مبلبلاً (بالأنانة القبلية) ثم إلى مفهومها الإسلامي ليعي المسلم ذاته كفرد في أمة داخل وحدة معشرية منظمة تنظيماً محكماً: مجتمعياً، سياسياً، وأخلاقياً.

فالمسلم - برأي المؤلف - مجموعة أنماط مختلفة لكينونة الشخص يعي ذاته كشعور متجسم في العالم.

* ثم يعرج الباحث ليدمج بين مفهومي الشخصية والإيمان في مجال الاستقلال الذاتي للشخص، ليكون الإيمان من خلال منظور المؤلف: اعتراف بوحدانية الله واستقلاله المطلق، واعتراف لنفسه بأنه واحد مستقل، ويعترف

بالقيمة العليا للعقل والفكر. ومن هنا لا يقبل الإسلام وساطة بين البشر وربهم.

كما أن كل (شخص) نسخة فريدة من صنع الله، فالعالم الإنساني كتاب عظيم غير متناه تتجاذب أوراقه وتتكامل برغم استقلالها واختلافها.

ثم يستعرض المؤلف تطور كلمة الشخصية من خلال مدلولات لغوية عدة: الفرد، العِرض، الحسب، النسب، إلا أن الإسلام تبنى محتوى كلمة (شخص) وزاده قوة وعمقاً وأدخله في نطاق الفقه: اعتقادات ومعاملات.

* ثم يحاول المؤلف أن يدخل في خصائص الشخصية ليميز بين الأفراد أو الأشخاص عقدياً، حيث يرى أن الإسلام لا يفرق بين الأشخاص إلا كونه مؤمناً أو غير مؤمن، رغم أن كليهما يعد شخصاً يساوي جميع الناس من حيث الكرامة الإنسانية وقداستها، فلكل شخص قابلية فطرية للإيمان.

كما أن الإسلام، من ناحية أخرى، يعتبر (الأنا) شعوراً ووعياً، والوعي قبس من نور الله، بينما كانت (الأنا) جاهلياً: تركيز في الداخل وتشتيت على الخارج، منعدم الذاتية الخاصة حسبه المشاركة في ذاتية قبلية مشاعة (وهل أنا إلا من غزية أن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد).

* كما يرى المؤلف أن القرآن الكريم استخدم مصطلح (وجه) ليدل على (الشخصية) ويدلل على ذلك لغوياً وقرآنياً وإغريقياً ويرى أن التمييز بين المصطلحين لم يحدث إلا متأخراً.

* ثم يدخل المؤلف في مصطلحات (الفرد) و(الماهية) و(الذات) و(أمرؤ) و(إنسان) ودلالة كل منها بمصطلح الشخص.

ويخلص الباحث في هذا العرض إلى فضل الإسلام في الإنقلاب الجذري في ذهنية ووجدان العرب، فبدلاً منه كفرد يذوب في القبيلة داخل إتصال أفقي صار شخصاً يشعر بشخصيته في ذاتها ويتصل عمودياً بكائن مطلق هو الخالق الأعظم. وأن شرف أي إنسان مكتسب، بصفة فردية، بفضل ما يقوم به من أعمال الصلاح والخير لا بالإنتساب إلى قبيلة أو وطن.

* ثم يدخل المؤلف في مصطلح (الوعي) و(الأنا) و(الآخر) ليرى أن

الإنسان في هذه الدنيا يقف وحيداً ترقبه عين الله: راضية أو غاضبة، ولكي لا يدفعه هذا الشعور بالانعزال عن الكون عوضه الإسلام بمفهوم الأمة: أي أن (الأنا) يتمتع باستقلال ذاتي في ترابط مع الـ (نحن). فالمؤمن في الإسلام (شخص - كل).

أما الجسد (وليس الجسم كما يوضح المؤلف) فإنه يكتسب قداسة بفضل تلاحمه الصميمي بالروح، لأن الروح فيض من الله.

وتأتي شهادة المسلم (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ليترتب عليها تأسيس علاقة مع (الآخر) ما دام (الأنا) و(الآخر) يشتركان في أداء نفس الشهادة. وبعد الشهادة أمام المطلق (الله)، وبعد التأمل والبحث العقلي في الكون، يلزم الإنتقال إلى النتائج العملية: الإيمان الديني والمعتقدات العلمية.

كما يرى الباحث أن الشهادة تكوّن النواة الأصلية والأصيلة للشخصانية الإسلامية أولاً، وتمدها بالدينامية الحيوية ثانياً.

* وما الشهادة سوى نقطة الانطلاق للمسلم، لأنه وبعد النطق بها عليه رزمة من الإلتزامات. فالشخص وحدة مفردة مستقلة الذات واعية لأفعالها وما يترتب عن هاته الأفعال من نتائج: تلك هي المسؤولية. فالاستقلال الذاتي والمسؤولية الشخصية يستلزم كل منهما وجود الآخر.

* أما المعطيات النشوئية عند المؤلف فإنه يأتي بوصف وتفصيل لنشأة الإنسان وخلقه من الطين ونفخة الروح وأطوار نموه. ولأن الكائن البشري من (جسد وروح) فإنه يرمي إلى أن يصير شخصاً بقدر ما يتوفق في إيجاد توازن بين هذين العنصرين، وأن يجعل من ذاتيته وحدة ينسجمان فيها.

وعندما يتشخصن الكائن البشري يلج عالم الحريات، لكن التحرير والعمل للمحافظة على الحريات يستلزمان قوة على التأليف وشعور المرء بذاته. والتشخصن يرتكز على العقل الذي يسّير القدرات على التحرر والتأليف والإنسجام.

وعن الشخص والدولة يرى المؤلف أن الدولة جهاز إنساني، لكن كثيراً ما

تجرّد الكائنات البشرية عن خاصيات الإنسانية: ففي اللحظة التي تحطم الدولة استقلال الأفراد الذاتي فإنها تحول دون تشخصنهم. ومن هنا أوجب الإسلام على كل مؤمن أن يراقب ممارسة السلطة وأن يكون ناصحاً لها.

* وفي القسم الثاني من الكتاب يدخل المؤلف في «تحفظات وتساؤلات»، ثم يقوم بطرح أسئلة يجيب عنها بنفسه، أسئلة من أسئلة الكليات الفلسفية. فتبدأ بالسؤال إن كان للزمان وجود، ويجيب بأن الزمان موجود وجوداً نحسه ونحياه، فنحن نتحرك والحركة تقتضي الزمان. فوجود الزمان وجود لاصق بوجودنا ولا يقبل العد والكم إلا بعد أن نحياه.

وعن فكرة (الوحي) و(الإلحاد)، فيذكر المؤلف أنه ليس هناك من أدلة علمية على وجود الله أو نكرانه. فالعلم يجتهد ليبرهن على صلاحيته الخاصة، ولكن طبيعته الوظيفية تمنعه من أن يبرهن على ما هو أجنبي عنه. فالعلم محاصر في ميادين خاصة لا تستطيع أرواء ضمئنا الميتافيزيقي ولا شحن ذهنيتنا بالسكينة، ولا إبادة القلق من وجداننا، فأنى للعلم أن ينفذ إلى استكناه المطلق فيثبت أو ينفي وجود الله؟

فالعلم يلاحظ ويحكي ويصف، والأخلاق تأمر وتنهي، أما الدين فيجمع بين وظيفتيهما ويفتح مجالاً واسعاً لإيحاءات يمكن للعالِم وللأخلاقي وغيرهما أن يستغلوها لمصلحتهما ولمصلحة الجميع، وهذا هو الدين: سبيل إلى الله على طريق الحرية.

* وبالرغم من أن الشخصانية الإسلامية مقتبسة من الدين، إلا أنها تمتنع عن الخضوع لأي اتجاه لاهوتي من شأنه أن يضع أفضلية للروح على الجسد أو للجسد على الروح: فالعقيدة قبل كل شيء التزام. والالتزام هنا ليس روحياً حسب وإنما يتعلق بالظروف المادية والموضوعية التي تعيشها الأمة والإنسانية جمعاء. فبين الإنسان وباقي الكون تسود غائية تعمل لصالح الإنسان الذي من أجله خلق الله العوالم والأشياء والكائنات.

* ويبدأ المؤلف بما يكيله إعداء الإسلام له من حيث وضع المرأة: كتعدد

الزوجات، انفراد الزوج بحق الطلاق، اختلاف شهادتها عن الرجل، نصيبها في الميراث(*).

وبعد أن يأتي المؤلف بحججه لكل قضية ودفعه عنها يخلص إلى أن المرأة مساوية كامل المساواة للرجل. فالشهادة التي تعد الركن الأول للإسلام واحدة ومشتركة بينهما، وهكذا الحال بالنسبة للأركان الأربعة الأخرى للدين. أما الاختلاف بينهما فهي غير متصلة بالجانب الأنطولوجي بل تنحصر في الجانب الفقهي فقط، والمرأة تقرن بالرجل كلما خاطب القرآن الناس. وحتى في هذا الوضع القانوني أو الفقهي فإن وضع المسلمة وضع تحرري ممتاز، إذا قورن بما كانت عليه المرأة العربية في الجاهلية (وقبلها فصَّل المؤلف في وضعها الجاهلي) أو المرأة عند الشعوب القديمة العريقة في المدنية (ويفصِّل وضعها في أثينا).

* ويدخل في إثبات التساوي بين الرجل والمرأة: بايلوجياً ثم نفسياً ثم دينياً. ثم يناقش أهل المنار من خلال تفسير المنار ويسميهم (المناريون) في تفسيرهم للقيمومة والرئاسة والنشوز... إلخ، ويرى أن خصوم المرأة خصوم للإسلام بالضرورة وهم يحتجون بأحاديث ضعيفة أو بإسرائيليات دخيلة.

ثم يدخل المؤلف في (الأموسية) و(الأبيسية) [أي المجتمعات التي تكون فيها السلطة للأم أو الأب] ويرى أن تفسير المنار وإن كان موقفه تحررياً، إلا أنه مظهر من مظاهر التشبث (بالأبيسيه)، وأن اتجاه البيئة المتحضرة المعاصرة ينزع إلى القضاء على مواريث (النظامين) ليؤسس بنيات مجتمعية جديدة على معايير وقيم تفترض المساواة بين الجنسين.

* أما الرق والذمة في الإسلام، فلكلا العبد والحر روح واحدة من ماهية واحدة خلقها الآله الواحد وكلاهما عبد من عباد الخالق. فبمجموع المواقف في السلوك اليومي يعترف المسلم للعبد بكرامته كشخص إنساني، فليس هناك إلا

(*) أصل الكتاب باللغة الفرنسية وهو موجه لأهل الغرب، لذا فالمؤلف يورد الحجة ويقارعها أو السؤال فيجيب عنه.

سيد واحد أحد وعبيد: الله من جهة والبشر جميعاً من جهة ثانية. وقد عمل الإسلام جاهداً للتخفيف من عبء الإسترقاق وإضعاف حدته وإرجاع الشخصية الإنسانية للعبد وجعلها واعية عنده ومعترفاً بها من الآخرين.

أما أهل الذمة فإن الإسلام يضمن لهم حرمتهم كأشخاص إضافة لممتلكاتهم الدينية والثقافية والمادية، لأن شريعة القرآن تعتبر قانون الذمة نوعاً من الضيافة بتعاقد: فالجزية مقابل الحماية، أي ضريبة يسهم بها الذمي في تمويل المصالح العامة المشتركة دون إلزامهم بالتجنيد لأن واجب الدولة صيانتهم من كل عدوان.

* وفي الجزء أو القسم الثالث الأخير من الكتاب يجيب المؤلف عن سؤال: أين نحن اليوم؟

- يرى المؤلف أن الثقافة الإسلامية إنسلخت عن تشخصنها، فمن المؤلم أن (الاجتهاد) لم يُحترم دائماً فنصّب الفقهاء أنفسهم أوصياء على التشريع وكافحوا من أجل التقليد، أي الإخلاص الأعمى للنصوص.
- ويرى المؤلف أن الحضارة الإسلامية بدأت تتدهور منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بسبب: الانغماس في الشكليات، عبادة الماضي (العادة)، مع رفض التجديد بحيث صار كل إبداع بدعة.
- ثم يستعرض المؤلف السلفية الإسلامية والنهضة الغربية، ويرى المؤلف أن السلفية الإسلامية لا تعني في الواقع إلا: الاجتهاد - أي الرأي الشخصي - ، حرية التأويل، التأمل في سائر الميادين. ومن هنا فالصورة التي كونها الغربيون عن القرون الوسطى لا تطابق تلك التي لدى المسلمين. ويرى المؤلف أن السلفية حركة ثورية، فهي أولاً حركة تطهير مما علق بالإسلام، وكفاح من إجل فتح باب الاجتهاد ثانياً، وتحيُّن (التكيف مع مقتضيات العصر) الإسلام بتأويلات جديدة.
- ثم يطرح المؤلف سؤالاً آخر: هل النزعة الإنسانية في الإسلام تعي ذاتها وتتفتح مع أو ضد روح القرآن والسنة؟ والجواب: للإسلام إمكانات قوية ومرنة على التكيف كما تجلى ذلك منذ انطلاقته الأولى

على عهد النبي ﷺ وصحبه. وأن النزعة الإنسانية للمسلم هي أن يحقق مصيره كعبد لله، وأن من صفات الله الخير والرحمة والطيبوبة، ويريد من عباده أن يكونوا خيرين رحماء طيبين.

- وأخيراً فإن المفكرين ينطلقون من الله لمعرفة العالم، وقد آن الوقت - كما يقول المؤلف - لننطلق من العالم نحو الله مع الآخرين. فعوضاً عن مشاهدة الله والزهد يجب أن نكون شهداء على آثار خلقه تعالى: فلنخرج من إنطواء الذات لنعمل، ولنصير أفراداً ذوي فاعلية، أي ليكون كل واحد منا إنساناً بكل أبعاد الإنسانية.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

الشخصية الإنسانية، أسلمة الشخصية الإنسانية، المرأة في الإسلام، الرق في الإسلام، حكم الذميين في الإسلام.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- الكتاب مؤلف أصلاً باللغة الفرنسية وموجهاً إلى المجتمع أو القارئ الأوروبي عموماً والفرنسي على وجه الخصوص. ومن هنا حاول المؤلف أن يكون جسراً عبر مضيق جبل طارق ليوصل الإسلام بوجهه العلمي النفسي المشرقي إلى الغرب: يسمع منهم ليرد عليهم بذات منطقهم وطريقة تفكيرهم ولغة حججهم.
- ولأن مقتضى الحال أن يرد على مجمل الأسئلة الموجهة للإسلام، ولأنها متعددة الجوانب والميادين، فإن الباحث رغم إلتزامه بالمسار الشخصاني النفسي إلا أنه فرش كتابه لإستيعاب كل المجالات الأخرى: فيرد نفسياً واجتماعياً، ولغوياً، وفقهياً بل وحتى تاريخياً. وكان بدون شك موفقاً جداً في ذلك.
- المصطلحات التي استخدمها المؤلف في صيغته (أو ترجمته) العربية كان

فيها شيء من التعقيد وشيء من النحت اللغوي الجديد للمصطلحات. وأحياناً كان يضعها بنفس مصطلحها الأعجمي ولكن بحروف عربية، مما جعل الكتاب غير يسير أو ميسّر لكل قارئ.

❑ ❑ ❑